



في ثرثره الطويلة مع جلسايه وزواره، المقربين، كان الرئيس حافظ الأسد يعتذر عن إبقاء الجولان جبهة صامته، بالحديث عن «استراتيجية التوازن». فهو لن يخوض حربا مع إسرائيل، إلا عندما يتتوفر التوازن العسكري معها، من حيث التسلیح والتدريب.

يضيف الأسد بأن الجولان تبادلتها الأيدي أكثر من مرة خلال حرب أكتوبر (1973). وكان بإمكان السوريين استعادتها بشن هجوم معاكس آخر. لكن قبلوا بوقف إطلاق النار باكرا، لإنقاذ القوات المصرية من الحصار. تطورت القوات السورية تسلیحا وتدريباً منذ تلك الحرب.

لكن التوازن الاستراتيجي لم يتحقق. وربما اختل لصالح إسرائيل، أكثر وأكثر بعد انهيار الاتحاد السوفييتي (1989 / 1991). في المقابل، انهارت نظرية الأمن الإسرائيلي. باتت إسرائيل تحسب بدقة حساب الحرب مع العرب. وحلت نظرية «الردع» محل نظرية «الأمن»، وذلك بالاكتفاء بوخذ الإبر: عمليات تخريبية خاطفة خلف الخطوط، لا تستدعي بالضرورة حربا، أو ردا من الجانب العربي، حسب التصور الإسرائيلي.

كانت نظرية التوازن من ابتكار الفكر «الاعتذاري» عند الأسد.

وقد اعتدت إسرائيل مرارا على سوريا في عهد الأب والابن. وكان الرد بأن الاستفزاز (المهين) لن يجرهما إلى الاشتباك. وأنهما هما اللذان يحددان التوقيت. ولم يأت هذا التوقيت أبدا. وقد فضحت الثورة السورية التطوير والتسلیح. فتبين أنهما كانوا لضرب ملايين السوريين بالمدافع. والدبابات. والطيران. والصواريخ. وليس أبداً إسرائيل.

في الأربعاء الماضي، هاجمت إسرائيل سوريا بشار. وهي المرة الرابعة التي تهاجم فيها إسرائيل سوريا، في عهد بشار. وتطوع بشار بالرد التقليدي إياه. في الحساب السياسي، كان النظام العلوي هو المستفيد من العدوان الإسرائيلي. فقد خرجت مزيكا فرقة الدعاية (حزب الله، إيران، روسيا، أنصار الممانعة) لتقول إن إسرائيل اعتدت، فيما كان النظام في ذروة الاشتباك مع الإرهابيين.

بل ربما كان مجيء سعيد جليلي إلى دمشق وبيروت، قاطعا حضوره لمؤتمر الأمن في ميونيخ، لمفاتحة بشار بفكرة الرد هذه

المرة. لأنها فرصة لشد عزيمة النظام، وإنقاذه أمام المسلمين والعرب من الانهيار القاتم. جليلي مدير مكتب الأمن الإيراني لدى خامنهئي وحده يعرف ما إذا كانت إيران جادة في الرد. وقد فاجأت الغرب بالإعلان عن تجنيد مزيد من أجهزة الطرد المركزي، في إثراء مزيد من اليورانيوم.

هل يتباوب بشار؟ هل يغامر؟ إلى الآن، كان «حزب الله» هو الذي يغامر بالرد بأمر من إيران. في المغامرة الأخيرة (2006)، قتل 1200 شيعي لبناني. هذه المرة جاء الدور على بشار، حسب الترتيب الإيراني لفرقة مزيكا الممانعة، وهو على هذه الحالة من الضعف والاهتزاء.

بعد الحرب الإسرائيلية في لبنان (1982)، اعتمد نظام الأسد الصاروخ والكيماوي في التطوير الدفاعي للقوات السورية.

وكذلك في مستودعاته عشرات ألوف الصواريخ، من كل الأحجام والأنواع. وقبل الغارة الإسرائيلية الأخيرة، بدأ حشو صواريخ إس - 17 أرض / جو بالكيماوي. وقالت إسرائيل إنها كانت متوجهة إلى حزب الله في لبنان.

هل كان بشار يعتزم تسليم حزامه الكيماوي إلى الحزب الإيراني، قبل أن ينهار نظامه؟ أم هو يريد استخدام الحزب مرة أخرى في ملهاة الممانعة؟ أم هو يعتزم مع الحزب إلهاب وتفجير المنطقة كلها، كما هدد ووعد، بعد انفجار الثورة؟

في ضرب الأخماس والأسداس، في متاهة الحرب واللاحرب الجارية حالياً، أترك أصحاب القنابل النووية والصواريخ الكيماوية، وأذور معاذ الخطيب شيخ شباب حارة «الائتلاف» السوري المعارض، لأسأل فضيلته، عما إذا كان جاداً هو الآخر، في عرضه التفاوض مع نظام بشار؟

إذا كان جاداً، فهل تجوز في شرع فضيلته توبة بشار؟ هل يغفر له بعد سقوط أكثر من 60 ألف شهيد بينهم أطفال؟ هل يمكن التوصل إلى اتفاق ينزع قبضة العائلة.

والطائفة، عن الجيش. والحزب. وأجهزة الأمن. والإدارة الحكومية؟ هل يمكن بناء دولة ديمقراطية متسامحة. شريفة. ونزيهة، مع بقاء هذا النظام طرفاً في اتفاق جاد؟

هناك اعتراض عاصف في تنظيمات الثورة السياسية والمسلحة، في الداخل والخارج، على مبدأ التفاوض. هل الثورة في انحسار. في جمود، بعد الهجوم المضاد الأخير للقوات النظامية؟

أمر غريب والثورة تستكمل في مارس (آذار) المقبل عامها الثاني، من دون أن يصدر ميثاق ثوري، إن لم يجمع التنظيمات الثورية، فهو على الأقل، يحدد نظرياً الأهداف. والأدوات. ويحسّن المواقف!

هل فضيلة الشيخ الخطيب متفائل. متشائم. متشائلاً، على طريقة الفلسطيني الراحل إميل حبيبي؟  
بعد لقاءات الشيخ الأخيرة مع الأصدقاء والوسطاء البيض. والخضر. والسم، ماذا كانت النصيحة؟  
وماذا كانت النتيجة؟

لماذا رحب الفرنسي فابيوس. والتركي داود أوغلو. والروسي لافروف. والأردني ناصر جودة، بحكمة التفاوض؟  
إذا سمح لي فضيلته، فستأنه فليلاً عند الوزير ناصر جودة. أعرف أنه رجل الثقة. وقد خبرت اهتمامه. وشكّرت اتصاله.  
وجوابه عن شكوى قديمة لي. أريد أن أسأله:

- لماذا نصب مخيم الزعترى في ذلك المكان الموحش القريب من الحدود؟

فهو حريق في الصيف. غريق في الشتاء. ربما كان أسهل إقامة. وأرخص كلفة. وأرحب ضيافة، لو أنه حل في ظاهر المدن الأردنية. واستفاد من خدماتها.

هناك اليوم أكثر من 300 ألف لاجئ سوري في الأردن.

اللاجئون الحوارنة ليسوا بغرباء. فهم يمتّون بقرابة العشيرة للأردنيين. وأحفاد العوائل التجارية الدمشقية التي شاركت، منذ

مائة عام، في تأسيس الدولة الأردنية، يملؤن أسواق عمان والمدن الأردنية، كجزء لا يتجزأ من المجتمع الأردني، وكمواطنين أردنيين أصلاء.

أعرف، يا سيادة الوزير، أن الأردن بلد فقير. لكنه سمح. مضياف. فهو عربي أصيل. شارك في تحمل نكبات العرب. ولا أدرى لماذا هذا الخلل في سوء الخدمات المقدمة لهؤلاء اللاجئين، مع أن معظم المساعدات آتت من دول شقيقة في الخليج. هؤلاء البؤساء في الزعترى لم يأتوا من الصحراء. أتوا من مدن مزدهرة. وبيوت عامرة هدتها أيدٍ آثمة. وما زال ألف من شبابها يقاتلون في شوارعها.

لم تلحقني، بعد، موجة التعصب. الأردن في قلبي. كما الشام. والخليج. والعراق. ولبنان...  
لا ألوم، يا سيدى، ولا أسألك في السياسة. ولا لماذا يرحب الأردن أو يرفض تفاوض الشيخ الخطيب مع بشار. إنما أسألك عن أهلك. عن 300 ألف إنسان هم في محنـة.  
ولا أقول في مذلة. وأنشد جواباً منك، ليس بديبلوماسية وزير للخارجية، إنما بصرامة ناصر جودة عندما كان وزيراً للإعلام.

[الشرق الأوسط](#)

المصادر: